

الحوار الحضاري للعمارة الإسلامية في عصر التقدم التقني والمعلوماتي

لقد أصبح الحوار الحضاري يحتل مكان الصدارة في اهتمامات الباحثين والمفكرين، ومن المؤكد أن بروز العصر المعلوماتي بأبعاده المختلفة والذي يمثل أحد نتائج العولمة، وما نتج عنه من انقلاب في أحوال المجتمعات المعاصرة وبشكل خاص مجتمعات العالم الثالث، فتحت الطريق لضرورة قيام حوار بين الحضارات، وأصبحت الحاجة ضرورية لبناء جسور التفاهم والتسامح والتعايش الإنساني ومحاولة إيجاد حلول للإشكاليات التي تعترض سبل الحوار وكل ذلك يجنبنا ويلات الصراع والحروب التي تنذرُ بها نظرية (هنتنغن). فالبحث يفترض أن المتغيرات الجارية في النظام العالمي توفر مجالاً للتحاور والتسامح بين الحضارات، والعمارة الإسلامية التي هي إحدى التنتاجات المادية للحضارة الإسلامية تمثل أداة فعالة لاحتواء الصراعات الداخلية والخارجية في مختلف أنحاء العالم من خلال دورها في بروز حضارة إنسانية جديدة تستجيب لاحتياجات المصير المشترك للإنسانية، لذا تحددت المشكلة البحثية عن (ما هو الدور الحضاري الذي تلعبه العمارة الإسلامية التي جوهرها الإسلام في التحوار بين الحضارات المختلفة وبين المسلمين والأديان الأخرى)، لحل المشكلة البحثية أعتمد على الفرضية الآتية: (إن العمارة الإسلامية هي عمارة الحضارة الإنسانية الجديدة التي تستجيب لاحتياجات المصير المشترك للإنسانية لما تحتويه من قيم إنسانية للبشرية أجمع).

جاسم محمد نعمة*

للتوصل إلى أهداف البحث المتمثلة بإيضاح ما تلعبه العمارة الإسلامية من دور مؤثر في مشروع حوار الحضارات، تم الاعتماد على المنهج التحليلي، الذي يبنى نظرة واقعية حالية وتوقعات مستقبلية للدور الفعال للعمارة الإسلامية ضمن المتغيرات والصراعات التي تفرضها القوى العالمية (قوى العولمة) في زمن التصارع التكنولوجي والتقني لتكون أداة فعالة لاحتواء الصراعات الداخلية والخارجية في مختلف أنحاء العالم، وتكون جسراً بين الحضارات يمهد الدرب أمام تكوّن حضارة إنسانية جديدة.

العمارة الإسلامية

مفهوم العمارة في الإسلام:

في البداية لا بد من الإقرار بأن العمارة بمفهومها الشامل في الفكر الإسلامي تمثل التنمية التي تسعى إلى خدمة الفرد والمجتمع ويستجيب لمتطلباته السكنية والإدارية والخدمية والتجارية والتعليمية والثقافية والرياضية. وإن برامجها تتحدد على قدر حاجة الفرد والمجتمع وهي تنمو وتتطور مع مراحل نمو وتطور حاجاته وإن ما ينفق عليها هو من مال الله الذي استخلف الإنسان في إنفاقه. فلا بد من حسن توظيفه أو استثماره واستغلاله ويعني ذلك أن ما يدخل في أعمال التنمية من مواد يجب أن يكون من عمل وإنتاج الإنسان المسلم الذي أمره الله بإتقانه "فخير الناس من طال عمره وحسن عمله" (رواه الترمذي).

كل هذه مضامين هي إسلامية يمكن تطبيقها في كل

مكان وزمان من العالم الإسلامي الواسع ويبقى بعد ذلك البحث عن الذات المحلية بما يتناسب مع القيم التراثية والبيئة المحلية والخلفية الحضارية والثقافية التي تتغير مع تغير المكان والزمان وتؤكد خصوصية المكان. وإذا كان بعضهم يؤمن بالعالمية والعولمة وأن العالم أصبح قرية واحدة بسبب ثورة الاتصالات فإنهم ينزلون بمحض إرادتهم إلى مستوى لا يعرفون مدى آثاره التخريبية على المدى البعيد قال تعالى: "ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة" - (٤٨ المائدة)، وقال تعالى: "ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة" - (١٢٨ هود). وقال تعالى: "ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين" - (٣٣ الزخرف).

فالإسلام يدعو إلى أعمال الفكر والعمل على الارتقاء بالمستوى المعيشي للإنسان فهو لا يحد من الإحسان والابتكار ما دام في صالح المسلمين وأقرب الأمثلة على ذلك ما قام به المعماري الألماني بودي راشي والذي أعلن إسلامه عام ١٩٧٤ والذي قام بتصميم مجمعات الخيام الجديدة في منى بالمشاعر المقدسة وهي مكونة من خيام مقاومة للحريق ومزودة بوحدات تبريد تعمل على التبخير كما أنها مزودة بمصادر للكهرباء والماء. وكان قد صمم من قبل المظلات المتحركة في الساحات الداخلية في المسجد النبوي الشريف، ففي مثل هذا العمل فرض عين على

المعماري المسلم أن يجد ويجتهد ويسخر العلم لصالح المسلمين في مجال العمران والعمارة. وكما يدعو الإسلام إلى إضفاء العنصر الجمالي في المحيط العمراني الذي يعيش فيه الإنسان داخلياً وخارجياً. قال تعالى: "قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق. قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصةً يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون" (٣٢ الأعراف)، وقد ربط الله تعالى الزينة بالإيمان حتى لا تنقلب الزينة إلى إسفاف وإسراف وخيلاء قال تعالى: "ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً" (٣٧ الإسراء).

وبذلك تتضح لنا الصورة المثالية للعمارة بأنها تمثل التفاعل بين الإنسان والمكان أي القدرة على أنسنة الفضاء الذي يحتويه بكل ما يتضمنه من معان ودلالات، فدلالة التشكيل تعني دلالة فهم الحياة واستيعابها بما لها من متطلبات أساسية وحاجات إنسانية وتطلعات مستقبلية، فالحيز المكاني لا يقتصر على الخصائص الفيزيائية وإنما يتعداه إلى الهوية التي تمنح الإحساس بحيوية الحي المكاني وتحقق المنفعة مع المحافظة على الخصوصية. ويعبر المكان عن مكنوناته حيث

فالإسلام يدعو إلى أعمال الفكر والعمل على الارتقاء بالمستوى المعيشي للإنسان فهو لا يحد من الإحسان والابتكار ما دام في صالح المسلمين.

الشكل أو اختلاف الأشكال وتعدد القراءات، إضافة إلى إنه يعد من الناحية الفيزيائية نسيجاً من العلاقات المتشابكة والمختلفة باختلاف مكونات بيئة الإنسان الفكرية وبيئته الاجتماعية والعمرانية، وهذه العلاقات المتشابكة تعتمد على مجموعة من العلاقات وأهمها؛ الطبيعية، العقائدية، القيمة، والثقافية وعلاقات اعتبارية أخرى (عبد الجبار، ١٩٩٧، ص ٦٣). وللنظام الإنساني - المكاني أربعة ركائز تقع في ضمن تنظيميهما الاجتماعي - المكاني وهي: التزامن synchronic، الفعالية. activity المكان. place الإنسان human الذي هو المحور الأساسي للارتقاء. ولا تقتصر العمارة الإسلامية على الجانب الوظيفي أو الآلي فقط، ولكنها تعبير شامل لمواجهة المتطلبات الأساسية في ضوء القيم الإسلامية وتوفير الراحة والطمأنينة وكل ما تحمله السكنى من معانٍ لشاغلها، فضلاً عن الجانب التشكيلي والجمالي لاستكمال المضمون الإسلامي من واقع القيم التراثية والثقافية للمكان.

مبادئ العمارة الإسلامية وإنسانيتها

إن العمارة الإسلامية تمثل الجانب العملي للحضارة الإسلامية، وإن جوهر العمارة الإسلامية هو الإسلام، وإن جوهر الإسلام هو التوحيد، أي التوكيد على أن الله سبحانه هو الخالق الواحد المطلق المتعال ورب الكائنات جميعاً، وهذان المبدعان الأساسيان باديان بوضوح ولم يتطرق الشك إليهما قط إلى من كان ينتمي إلى هذه العمارة أو أسهم فيها. فالتوحيد نظرة إلى العالم

والزمان والمكان والتاريخ البشري (للمسلمين وغير المسلمين)، أي للعالم أجمع.

وتتكشف العمارة الإسلامية في البيئة الإسلامية، حيث يمكن الشعور بها كما يرى (Schulz) قبل أن نلتقي بأي إنسان أو نرى أي علاقة كتابية ونشعر بها في كل مبنى وفي كل زخرفة وعلى مستوى المدينة ككل (The age khan program, 1993. p.40). وهذا ما جعل (Schulz) يطلق على العمارة الإسلامية مصطلح (عمارة الوحدة) (Norbeng, 1979. p.23)، وأن العمارة الإسلامية اعتمدت على عمارة الوحدة بالتركيز على احد القطبين من الثنائيات المتناقضة كالبساطة والتعقيد، وأن وحدة الدلالات الفكرية (المضامين) مع المدلولات الشكلية (الأشكال) مختلفة باختلاف اللغة المعمارية لكل امة من الأمم، ومن ثم أنجبت العمارة

وبذلك تتضح لنا الصورة المثالية للعمارة بأنها تمثل التفاعل بين الإنسان والمكان أي القدرة على أنسنة الفضاء الذي يحتويه بكل ما يتضمنه من معان ودلالات، فدلالة التشكيل تعني دلالة فهم واستيعاب الحياة بما لها من متطلبات أساسية وحاجات إنسانية وتطلعات مستقبلية

الإسلامية تفاصيل ومفردات غزيرة ومتعددة ومتفرعة باختلاف المعماريين وبيئاتهم وثقافتهم (حسين،

١٩٨١، ص ٦٥). فاعتمدت العمارة الإسلامية على مبادئ عامة إنسانية وعالمية في مضمونها وهي كما يأتي:-

أ-التجريد: إن ما يرافق ذلك من معاني جمالية كالإيقاع والتدرج من البسيط إلى المعقد، ومن الخارج إلى الداخل، والتزاوج بين المجرد والملموس. وهي بذاتها ترتبط ارتباطاً كاملاً بخصائص العمارة الإسلامية وجوانبها الفيزيائية الشكلية المحلية وعلاقتها ببعض الجوانب التي ارتبطت بالمعاني والمضمون وهي تمثل مفاتيح لمبادئ إنسانية عامة لتكون عمارة إنسانية عالمية شاملة وهي كالآتي: (عبد الجبار، ١٩٩٧، ص ٦١)

- التركيز على الداخل (المضمون) والانفتاح عليه أكثر من الخارج (الشكل)
- المرونة وقابلية التكيف والامتداد الأفقي
- عمارة إنسانية ذات مقياس إنساني
- ثبات المضمون مع التغير في الشكل
- الإيقاعية والإنسانية
- الوحدة والتنوع

ب-الوحدة: تتمثل في ترابط الأجزاء وتكاملها في انسجام بحيث يكون من الخطأ تهيمش جزء منه أو فصله عن الباقي، وتتكامل كل الأجزاء وتتفاعل بعضها مع بعضها الآخر سعياً في تحقيق الانسجام للكل من تكامل الإقرار، أما المتشابهة أو المضادة ومن تكامل الجوهر والعرض، والمادة والصورة، والزمان والمكان، ثم تدل على التصور الشمولي عن التصور الكامل الابتدائي (بن يوسف، ١٩٩٢، ص ١٣٥).

دان بالإسلام من الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، أوجد تنوعاً في الإبداع مع التصاق قوي بالوظيفة. ولقد كان الطراز الإغريقي والروماني واحداً في جميع المباني على اختلاف وظائفها.

فالعوامل الثابتة تتمثل فيما يأتي: - اتجاه القبلة - الموقع والمحيط - النسيج العمراني - الطرق الرئيسية للتجارة - وسائل النقل. اما العوامل المتغيرة وهي ذات طبيعة متغيرة مرتبطة بالزمان والمكان وتتمثل فيما يأتي: - طابع ديني - طابع ثقافي واجتماعي - طابع سياسي - طابع اقتصادي - تكنولوجيا مواد البناء المتوفرة

ففي العمارة الإسلامية تتوحد بتنوعها بحيث تكون الوحدة في المضمون والتنوع في الشكل، لاحظ الشكل (١)، فالوحدة بدون تنوع تقود إلى الرتابة، أما التنوع بدون وحدة فيقود إلى الفوضى، فالوحدة ميزة مهيمنة وواضحة في العمارة الإسلامية.

د- النمط في العمارة الإسلامية: - إن النمط في العمارة هو جزء من سلسلة نمطية مستمرة تبدأ بالأنماط الأصلية، وقد اختلف في تفسير هذه الأنماط تبعاً لذاتية المفسر وفلسفته ومعتقداته. لكن النمط يرتبط بذهن مجتمع معين في عصر معين، لأنه يعبر عن حالة الفكر والمشاعر ثم يتجسد هذا النمط مادياً في نموذج (موديل) له صفة مستقلة وخاصة عن مجمل التغيرات المؤثرة على العمارة (عوامل سياسية واقتصادية ومكانية واجتماعية، ...)، فهو يعبر عن الزمان والمكان والحالة مع احتفاظه بخصائص البنية العامة للنمط ويبدو بأنه آخر حلقة في السلسلة النمطية، لكنه بعد عملية الإرجاع

وتبقى هذه الوحدة العامل الأساس في تكوين هوية العمارة الإسلامية، أما تنوع أساليب العمارة فتعبر عن دور الإبداع في التصميم المعماري بالتنوع في الأساليب والطرز والأشكال.

تستمد من وحدة الإله، والتنوع مع الوحدة يماثل التعامل مع الأصوات لإنتاج التناغم. ولعل الوحدة من أبرز خصائص العمارة الإسلامية، وتتجلى في العمارة الدينية والمدنية، وفي العمارة الخاصة والعامة على اختلاف المناطق وتوالي العصور. وتبقى هذه الوحدة العامل الأساس في تكوين هوية العمارة الإسلامية، أما تنوع أساليب العمارة فتعبر عن دور الإبداع في التصميم المعماري بالتنوع في الأساليب والطرز والأشكال. ولهذا كان أمام المصمم فرص كثيرة لتنوع الإبداع ضمن حرية واسعة يسدّد تجاهها الفكر الجمالي الإسلامي، وبهذا كان التنوع بوحدة الأسس الجمالية التي يقوم عليها الإبداع الإسلامي. لاحظ الشكل (٢)

ج- الثابت والمتغير: وهي نابعة من الفكر الإسلامي في كونه ينعكس على الشكل الذي أعده (المتغير)، فالمضمون الإسلامي هو ثابت وهو يتناسب مع كل زمان، أما الأشكال فهي متغيرة بتغير المكان وإن المضمون هو المحرك الحقيقي لإنتاج صور شكلية متغيرة مع الزمان والمكان. تميزت العمارة الإسلامية بانسجام الشكل المعماري مع المضمون الوظيفي ولكن اختلاف العادات واللغات والحضارات في العالم الذي

تميزت العمارة الإسلامية بانسجام الشكل المعماري مع المضمون الوظيفي ولكن اختلاف العادات واللغات والحضارات في العالم الذي دان بالإسلام من الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، أوجد تنوعاً في الإبداع مع التصاق قوي بالوظيفة

والتجريد إلى الخصائص الإسلامية والكلية في التشكيل يتحول ثانية إلى نمط جديد، له قابلية على إعادة الإنتاج والتطوير بشكل مستمر وبهذا يصبح النمط عملية ديناميكية مستمرة للإبداع والتطوير. وتمثل الأنماط حالات الوحدة في العمارة الإسلامية، أما النماذج فتمثل حالات المتغيرات (الأشكال المتنوعة) للعمارة الإسلامية التي في كلتا الحالتين تمثل مبادئ الثبات والتغير للحوار بين الحضارة الإسلامية بجانبها المادي (العمارة) مع الحضارات الأخرى.

المؤشرات الإنسانية لتخطيط المدينة على وفق الفكر الإسلامي:

إذا كانت الأسرة هي الخلية في البناء العضوي لأي مجتمع، فإن وحدة الجوار هي الخلية في البناء العضوي للحيز العمراني التي تحتوي هذا المجتمع، لأن العمران هو حويلة التفاعل بين البناء الاجتماعي والبناء المعماري بما فيهما من مقومات اقتصادية واجتماعية وثقافية وحضارية، الأمر الذي معه يصعب

الفصل بين المجتمع والمعمار. وإذا كان الإسلام قد أكد بر الوالدين في الأسرة وعلى الإحسان لذي القربى واليتامى والمساكين والتوصية خيراً بالجار، فإن في ذلك إشارة إلى ضرورة التعايش والتكامل والتكافل بين هذه الفئات المتواجدة في حيز مكاني واحد. قال تعالى: "واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجوار ذي القربى والجوار الجنب" - ٣٦ سورة النساء، وفي هذا دليل على تلاحم النسيج العمراني بالنسيج الاجتماعي في وحدة الجوار، ويبقى تحديد أبعاد وحدة الجوار وإلى أي مدى يستمر الاعتبار بالجوار أو التعريف بالجوار، وقد تحدد هذا البعد في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: "الآن أربعين داراً جار... ولا يدخل الجنة من خاف جاره بوائقه" - رواه الطبراني - وقال: "حق الجوار إلى أربعين داراً هكذا وهكذا وهكذا يميناً ويساراً وأماماً وخلفاً" وقد يكون هذا التعريف بأبعاد وحدة الجوار منسباً للدار الواحدة وقد تمتد هذه الحدود فيما يخص الدور المتلاصقة ويصبح التعريف منسباً لكل دار، ويمكن أن يكون في هذا التعريف مدخل لتحديد الحيز العمراني لوحدة الجوار في التخطيط العمراني المعاصر تلائم الجوانب الجسدية والنفسية للإنسان بأي مكان، وهي بخلاف التعريف التقليدي للمجاورة السكنية المأخوذ عن الفكر التخطيطي الوارد في النظريات الغربية والتي تحدد حجم المجاورة السكنية فيما بين (٤٠٠٠ - ٥٠٠٠) نسمة مقدراً على أساس حجم المدرسة الابتدائية في وحدة الجوار (حسين،

(١٩٨١، ص ٣٢).

فإذا كان عدد الدور في وحدة الجوار في كل اتجاه هو أربعين داراً فيكون عددها بالاتجاهات الأربعة ١٦٠ داراً في كل منها عائلة مفردة أو مركبة من أكثر من عائلة تضم الأولاد المتزوجين، ففي حالة العائلة الواحدة يصبح عدد السكان في وحدة الجوار حوالي (١٦٠ × ٥ فرد للعائلة) = ٨٠٠ فرداً. وفي حالة العائلة المركبة يصبح عدد السكان حوالي ١٦٠٠ فرداً أو ٢٤٠٠ فرداً على أعلى تقدير وفي كل الحالات يكون المسجد هو المكان المركزي الذي تلتف حوله وحدة الجوار ليس فقط لأداء الفرائض الخمس جماعة، لكن للقاء ولتدارس شؤون المجتمع واحتياجاته من الخدمات والمرافق. وإذا كان في كل ١٠٠٠ نسمة ٤٠٠ مفروض عليهم الصلاة في المسجد فان سعة بيت الصلاة في المسجد بوحدة الجوار تستوعب ما بين (٣٢٠ - ٩٦٠) مصلي بخلاف العناصر التعليمية والاجتماعية والثقافية والصحية التي تتكامل مع وظيفة المسجد. وترتبط مساحة وحدة الجوار بالكثافات السكانية المتغيرة بتغير

وإذا كان الإسلام قد أكد بر الوالدين في الأسرة وعلى الإحسان لذي القربى واليتامى والمساكين والتوصية خيراً بالجار، فإن في ذلك إشارة إلى ضرورة التعايش والتكامل والتكافل بين هذه الفئات المتواجدة في حيز مكاني واحد.

المستوى الاقتصادي والاجتماعي لأصحاب الدور والتي تتراوح في الامتدادات الأفقية ما بين (٢٥ - ٥٠ - ٧٥) فرد للفدان، ومع تثبيت مساحة وحدة الجوار كخلية تتكاثر في البناء العضوي للعمارة تصبح المساحة ٣٢ فداناً كمساحة ثابتة تتغير فيها الكثافات. ويمكن تحديد أبعادها القياسية على أساس العرض ٢٦٠م والطول ٥٢٠م، وفي هذا المستطيل تتحدد العناصر العمرانية المكونة لوحدة الجوار والتي يتوسطها المسجد وملحقاته وتشعب منه شرايين الخدمات التجارية والإدارية والتعليمية التي تمتد بين المجموعات السكنية التي تضم الطبقات الاقتصادية والاجتماعية المتقاربة من السكان مع العمل بمبدأ الوسطية الإسلامية التي تحد من التفاوت الكبير بين الطبقات في الحيز العمراني الواحد تأكيداً لمبدأ التكافل والتكامل وتفادياً للتشاحن. وعند تحديد استعمالات الأرض في وحدة الجوار من الأفضل الفصل بينها حتى لا يختلط الاستعمال السكني مع المسجد بالاستعمال التجاري والأسواق حيث قال - صلى الله عليه وسلم - : " أحب البلاد إلى الله مساجدها وأبغض البلاد إلى الله أسواقها " - رواه مسلم - وينظم الإسلام حركة الإنسان المسلم في الطريق بأن يلتزم بالآداب والسلوكيات الحميدة الواردة في حق الطريق وهي غض البصر والكف عن الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو ما يستدعي تجنب وضع الأماكن التي تساعد على تكثيف الجلوس في الطرقات. ووحدة الجوار في تكاثرها تشكل الحيز السكني الذي تطبق فيه المبادئ الإسلامية في العمران

وينظم الإسلام حركة الإنسان المسلم في الطريق بأن يلتزم بالآداب والسلوكيات الحميدة الواردة في حق الطريق وهي غض البصر والكف عن الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو ما يستدعي تجنب وضع الأماكن التي تساعد على تكثيف الجلوس في الطرقات.

الطابق العلوي وهي على شكل صفوف، التي تشكل صحن المركز. الطوابق أسفل الأروقة قسمت على أربعة أجنحة تضم الصفوف والمنايات والمكاتب وقاعة صلاة صغيرة ومخزن ومكتبة ومناية الإمام. ويضم المركز أيضاً خدمات طبية عالية وأطباء متطوعين. أما الشكل العام فيتبع الشكل التقليدي للمساجد. قاعة الصلاة مغطاة بقبة مركزية ضخمة محاطة بـ ١٦ قبة اصغر حجماً. (بشير، ٢٠٠١، ص ٣٥).

أما الأعمدة فهي تشكل مساحات رمزية للرواق. كل عمود يضم، كرزمة، أربعة أعمدة التي تتفرع، في الجزء العلوي للعمود نفسه، وتنحني خارجياً مشكلة أربعة فروع منحنية إلى الأعلى كأغصان الشجر. وهذه الأعمدة تشكل العناصر الخارجية والداخلية المميزة للمسجد. يدخل الضوء الطبيعي للقاعة من سلسلة من الفتحات الموجودة في القبة.

ومن جانب الدور الاجتماعي: نجد المركز يلعب دوراً مهماً في توحيد المسلمين المقيمين في إيطاليا وفي

والمعايير التخطيطية لمتطلبات المجتمع الإسلامي من خدمات رئيسية وفرعية، وتنمو وحدات الجوار في إطار النمو العضوي للحي كما تنمو الشجرة متكاملة بكل أغصانها أو كما ينمو الإنسان متكاملًا بكل أعضائه (بن يوسف، ١٩٩٢، ص ١٣٧).

العينات البحثية

المركز الثقافي الإسلامي في إيطاليا

يقع المركز في الجزء الشمالي من روما في ضمن مسجد روما (أكبر مسجد في أوروبا) في منطقة البريولي، حيث يمثل نقطة تجمع ومرجعية في المجال الديني، من خلال ما يقدمه من خدمات ثقافية واجتماعية متصلة بطرق متعددة مع العقيدة الإسلامية: احتفالات زواج، جنازة، ومؤتمرات، وما شابه ذلك. مساحة المركز = ١٣,٨٠٠ متر مربع، ويضم كتلتين: لاحظ الشكل (٣)

الكتلة الأولى: - عبارة عن قاعة صلاة مستطيلة الشكل ضلعه الأكبر موجه باتجاه القبلة. ويضم بقية خدمات المركز، ومرافق الوضوء تحت قاعة الصلاة. وهناك قناة مائية ممتدة على طول ضلع الكتلة الثانية وتصل هذه القناة بين بركتين: إحداهما في الجهة الشمالية والأخرى في محور المركز. المنارة واقعة بين الكتلتين باتجاه جنوب غرب قاعة الصلاة. اما قاعة الصلاة فتضم باتجاه متعامد مع القبلة طابقين عرضهما يساوي عرض القاعة، للنساء المصليات، أما الطول فيساوي ربع طول القاعة الأساسية. لاحظ الشكل (٤)

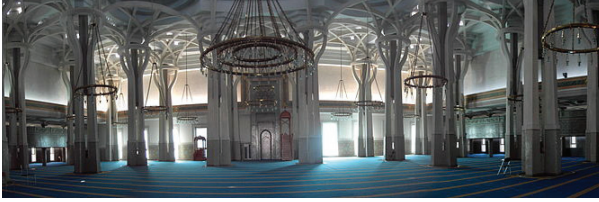
الكتلة الثانية: - تضم ثلاثة طوابق وأروقة تحتل

معالم روما السياحية.



الشكل (٣)

يوضح منظر خارجي للمركز الثقافي الإسلامي في روما



من جانب النقد والتحليل: يلعب المركز دوراً يجعله جزءاً هاماً من البنية الملائمة لاحتياجات ومتطلبات الجالية المسلمة. نجد ان تصميم المسجد والمركز الثقافي هو خطوة إيجابية نحو الحوار بين الإسلام والمسيحية، والشرق والغرب، بين التكنولوجيا والمسة الإنسانية، وبين التقليدية والحداثة. بدلاً من اعتماد مراجع تاريخية محددة من العالم الإسلامي الواسع بأنماطه وتفسيراته المختلفة، صمم تعبيراً بصرياً محايداً

يعد المبنى أداة تعليمية لفهم تطور العمارة الإسلامية في الغرب. ولهذا يزور المبنى عدد من طلاب المدارس المعمارية الدولية (الكندية والفرنسية والأمريكية والألمانية)، كجزء من رحلاتهم الدراسية.

بناء حوارات بين المسلمين والمسيحيين، وهذا نتيجة كثافة الأعمال الاجتماعية والثقافية والخدمات التي يقدمها المركز لدعم المسلمين والمجتمع المحيط. وبهذا أصبح المركز من أهم المباني الدينية الفريدة في إيطاليا اليوم. لذلك فان المركز يخدم مجموعات متعددة من المستخدمين، ومنهم:-

أعضاء المهمات الدبلوماسية للدول الإسلامية (بسبب اهتمام المركز، خصوصاً بالهيئات الدبلوماسية، الاسم المتداول بين العامة هو مسجد السفارات)، ومجموعات من المجتمع الإيطالي. أصبح المركز المكان الأفضل للدراسة والتثقف في الدين الإسلامي التحوار مع الثقافات الأخرى، وهذا الوعي يأتي من خلال المحاضرات والندوات والاجتماعات، زيادة على مجموعه مكونة من السياح، إذ يعد المبنى أداة تعليمية لفهم تطور العمارة الإسلامية في الغرب. ولهذا يزور المبنى عدد من طلاب المدارس المعمارية الدولية (الكندية والفرنسية والأمريكية والألمانية)، كجزء من رحلاتهم الدراسية. ومنذ أن أدرج المركز في خارطة روما السياحية وفي الكتب المعمارية، أصبح معلماً من

وتنبع الأصالة في عمارة المساجد من حقيقة أن أفكار التصميم تعتمد على حساسية التاريخ والعناصر الثقافية التي اكتسبت معنى مع مرور الزمن. وهذا ينعكس في الفراغات الداخلية المفتوحة وخاصة في قاعة الصلاة

معهد العالم العربي بباريس

يقع مبنى معهد العالم العربي في باريس على ضفة نهر السين مطالاً على كاتدرائية نوتردام ووسط المدينة التاريخية للعاصمة الفرنسية. وإنه لمبنى مدهش بالفعل وهذا بفضل هندسته المعمارية التي تجاوزت الأفكار العادية وحقت له جائزة أغا خان للعمارة. بل إن الهدف الذي كان وراء إقامة هذا المبنى كان فكرة مدهشة بحد ذاتها لأنه المعهد الوحيد في العالم المكرس كلياً لنشر المعرفة بالعالم العربي وثقافته. بدأت أعمال بناء معهد العالم العربي عام ١٩٨١ وانتهت في ١٩٨٧ وذلك بعد أن فاز تصميم المهندس المعماري جان نوفيل بمسابقة التصميم.

واجهة المبنى المطلّة على نهر السين مقوسة وتوازي في انحنائها تقوس النهر للتخفيف من وطء شكل المبنى المستطيل. أما الواجهة على الجانب الآخر فتأخذ شكلاً مستطيلاً تماماً من دون أي انحراف وتبدو للنّاظر وكأنها شاشة زرقاء بتصاميم هندسية متحركة. ويتضمن التصميم المعقد لهذه الواجهة فتحات تتحرك بمحركات تتحكم بها خلايا شمسية وتعمل كأنها ستائر تتحكم بكمية

يتحدث عن الغرب والمسلمين، بصرف النظر عن الأصل الجغرافي أو الخلفية الثقافية. وتنبع الأصالة في عمارة المساجد من حقيقة أن أفكار التصميم تعتمد على حساسية التاريخ والعناصر الثقافية التي اكتسبت معنى مع مرور الزمن، وهذا ينعكس في الفراغات الداخلية المفتوحة وخاصة في قاعة الصلاة، لاستحضار النموذج التاريخي لمسجد قرطبة في إسبانيا ضمن الأفقية والصورة العضوية للغابة من الأعمدة. أحس المصممون أن ذلك يضفي جواً من الروحانية. ويؤكد المشروع على إدخال عدد من المعالم التصميمية التي تتعلق بالعمارة الرومانية والباروك، تبدو المحورية والأثرية من السمات الغالبة، علاقة المشروع بالمضمون الثقافي تتجلى في أنواع الخدمات المقدمة وفي التعبير البصري للواجهات والتكثيل ككل. في التحقيق النهائي في المشروع ضمن الفكرة التصميمية للهيكل الإنشائي وتقنية المواد والتفاصيل، جعلت له قيمة ثقافية عالية في روما. ويهيمن على المشروع تصور هيكلي، تقريباً للقرون الوسطى، بسبب ازدحام الأعمدة، التي شكلها كوبي، مشابهة لتلك للكاتدرائية الغوطية، كل عمود مقسم على أربعة أجزاء على شكل صليب، تتوسع الأوردة في أعلى وكأنها شجرة في الغابة. يتضح مما سبق طرحه كيف أن المركز مما يوفره من بيئة مبنية على مبادئ إنسانية متجانسة مع مختلف الحضارات السابقة ساعد على استقطاب الزوار من مختلف الثقافات والتحاور فيما بينهم.

الأهداف تتمتع بأهمية كبيرة وينبغي العمل بجهد كبير لتحقيقها. صحيح أنه لا يغني عن ضرورة قيام الحكومات والقادة بتبني سياسات أفضل، غير أن التشجيع على تحقيق تفاهم أكبر عبر التفاعل الثقافي يمكن أن يكون له وقع إيجابي مهم على المجتمعات والسياسات.



نحت عند مدخل معهد العالم العربي

صحيح أنه لا يغني عن ضرورة قيام الحكومات والقادة بتبني سياسات أفضل، غير أن التشجيع على تحقيق تفاهم أكبر عبر التفاعل الثقافي يمكن أن يكون له وقع إيجابي مهم على المجتمعات والسياسات.

الضوء التي تدخل المبنى حسب حالة الطقس اليومية في كل فصل من الفصول. وتعمل هذه الفتحات الهندسية تماماً وكأنها فتحات آلات التصوير الأوتوماتيكية التي تغلق حينما يكون الضوء جيداً وتفتح حين يكون الضوء خافتاً في الأيام الغائمة. وهكذا ينتج تصميم المبنى ما تمكن تسميته بمرشحات الضوء وهو أمر عادة ما وظفته العمارة الإسلامية بما طورته من تقنيات التحكم بالجو. وإن التصميم الداخلي للمبنى غريب من نوعه أيضاً لأن كل بناء الداخلية بما فيها الأنابيب والتكييف مكشوفة ومرئية دوماً. كما أن بنى الأدراج مفتوحة أيضاً وتشكل حاشية مزركشة جميلة للبنى الأخرى معطية تشكيلاً رائعاً لهواة التصوير بالأسود والأبيض. وللمركز الثقافي العربي ثلاثة أهداف رئيسية هي:

(١) تطوير ودعم دراسة ومعرفة وفهم الوطن العربي وحضارته

(٢) تشجيع التبادل والتواصل والتعاون الثقافي بين فرنسا والوطن العربي

(٣) المشاركة في تطوير علاقات أقوى بين الأوروبيين والعرب. ومن نافلة القول إن هذه

المتاحة عبر متغيرات المكان ومعطيات الواقع الزمني بما يتيح للنظريات المعمارية أن تكون أقرب للواقع منها إلى المثالية.

٤- إن الإسلام دعا إلى التعارف بين الشعوب والقبائل، وإن العالم في مرحلته الراهنة وبخاصة في إثر ثورة المعلومات المستمرة، إلى درجة متقدمة من التداخل والتكامل والاعتماد المتبادل، حتى أصبحت الحياة تحتاج إلى جهد إنساني جمعي أساسه التعاون والتحاور، فالعمارة الإسلامية هي مؤهلة لتؤكد طبيعتها في التحاور.

٥- إن قبول مبادئ التعدد في الحضارات والتنوع الثقافي والتساوي بين أطراف التحاور هي السبيل إلى طي التضاد والتصادم. وحتى نكون أهلاً للتحاور مع الآخرين فلا بد من التسلح بالعلم والمعرفة، واعتماد العقل سبيلاً إلى ذلك، وتعظيم دوره في معرفة أسس الحضارة الحديثة وموقع العالم الإسلامي منها، وبخاصة التيار العقلي في الحضارة الغربية نشأ بسبب اتصال الحضارة الإسلامية بالحضارة الإغريقية.

إن قبول مبادئ التعدد في الحضارات والتنوع الثقافي والتساوي بين أطراف التحاور هي السبيل إلى طي التضاد والتصادم. وحتى نكون أهلاً للتحاور مع الآخرين فلا بد من التسلح بالعلم والمعرفة، واعتماد العقل سبيلاً إلى ذلك



مبنى معهد العالم العربي

خاتمة واستنتاجات

١- إن مواجهة تحديات العصر المعلوماتي ليس بالاستعلاء والتطرف والعنف وإنما تكون المواجهة بالأسلوب الإنساني لأن ديننا يدعو إلى التعايش السلمي والتسامح الديني من خلال توظيف القيم الإنسانية للعمارة الإسلامية لتكون جسور تفاهم بين الأمم والشعوب لما تعتمد عليه من قيم إنسانية مشتركة.

٢- احترام الاختلاف والتنوع الثقافي وذلك عن طريق تفعيل الأسس والقيم الإنسانية المشتركة بين الحضارات التي أكدها الإسلام وتمثلت في صور العمارة الإسلامية.

٣- يُعد اعتماد المقياس الإنساني من أبرز العوامل المؤثرة في العلاقة التبادلية بين النتاج المعماري من الناحية الوظيفية والتعبيرية والبيئة العمرانية، وذلك من خلال تفعيل القيم الإنسانية والثقافية

توصيات

- ١- إن عالم اليوم يزخر بألوان متعددة من الاختلافات العرقية والدينية والإثنية والثقافية والوطنية والقومية التي تتصادم في أماكن شتى من العالم، فتظهر الحاجة إلى بيئة فعالة في توحيد هذه الاختلافات بما يتعلق بإيجاد المؤشرات الإنسانية التي تلبي حاجة الإنسان في أي بقعة في الأرض، فتأتي بذلك العمارة الإسلامية بمبادئها الإنسانية التي أقرها الإسلام لتكون البيئة الفعالة الموحدة للبشر كافة والتي تكون أداة مؤثرة للتسامح والحوار بين مختلف الثقافات البشرية.
- ٢- إن الحضارة المعاصرة أتاحت للإنسان راحة الجسم، ولكنها لم تتح له راحة النفس، فالناس المتنعمون بإنجازات هذه الحضارة يشكون من الانحلال الخلقي، والقلق النفسي، والتفكك العائلي، والاضطراب العقلي، والتفكك الاجتماعي، وانتشار الجريمة. وسر ما يعانيه أناس هذه الحضارة أنهم أجسام بلا روح، فهنا تستوضح الحاجة إلى نشر ثقافة العمارة الإسلامية في البلدان كافة لأن تلبية الحاجة الجسدية والنفسية للبشر كافة، وتعد باباً من أبواب الحوار بين حضارات البشر المختلفة.

المصادر

- ١- إبراهيم، عبد الباقي، "أصول العمارة في الإسلام"، القاهرة، ١٩٩٩.
- ٢- شاهين، قاسم، "نهاية التاريخ والإنسان الأخير- لفرانسيس فوكوياما"، كتاب، إشراف ومراجعة: مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت، ١٩٩٣.
- ٣- ياسين، السيد، "الوعي التاريخي والثورة الكونية"، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام، القاهرة، ١٩٩٥.
- ٤- أبو زيد، أحمد، "محاضرات في الانثروبولوجيا الثقافية"، دار النهضة، بيروت، ١٩٧٨.
- ٥- المعجم العربي الأساسي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٨٨.
- ٦- علي، د. نبيل، "الثقافة العربية وعصر المعلومات"، عالم المعرفة، العدد ٢٦٥، الكويت، ٢٠٠١.
- ٧- صليبا، د. جميل، "المعجم الفلسفي"، الجزء الأول، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢.
- ٨- بدران، محمد، "قصة الحضارة - ول ديورانت"، مجلد الشرق الأدنى، جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٦١.
- ٩- زيادة، معن، "معالم على طريق تحديث الفكر العربي"، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت ١٩٨٧.
- ١٠- مؤنس، حسين، "الحضارة"، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، ١٩٨٧.
- ١١- هيثم، محمد، "الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد"، مركز البحوث والدراسات، دولة قطر، ٢٠٠٠.
- ١٢- كاريل، اليكسيس، "الإنسان ذلك المجهول"، ترجمة شفيق أسعد فريد، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٧٤.
- ١٣- الأميري، عمر بهاء الدين، "الإسلام وأزمة الحضارة في ضوء الفقه الحضاري"، مؤسسة الشرق للنشر والترجمة، ١٩٨٣.
- ١٤- الخالد، مصطفى، "التبشير والاستعمار في البلاد العربية"، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٧٠.
- ١٥- صامويل ب. هنتنغتن "إن لم تكن الحضارات فماذا تكون"، مجلة شؤون الأوسط، العدد ٣٠، حزيران / يونيو ١٩٩٤.
- ١٦- حسين مروة، "النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية

الهوامش

* جاسم محمد نعمة متخصص في الهندسة المعمارية، وهو أستاذ في قسم الهندسة المعمارية بالجامعة التكنولوجية في بغداد.

- "، الجزء الاول، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨١.
- ١٧- بن يوسف، إبراهيم، "إشكالية العمران والمشروع الإسلامي"، الطبعة الأولى، مطبعة أبو داود، جزائر، ١٩٩٢.
- ١٨- عبد الجبار، أمانة، "التجريد في العمارة"، رسالة ماجستير، قسم هندسة العمارة، الجامعة التكنولوجية، بغداد، ١٩٩٧.
- ١٩- بشير صالح، "أبواب جمالية إسلامية"، تصدر عن دار الساقى، بيروت، ٢٠٠١.
- 20-Blaise Lempen," la mondialisation Sauvage: De la fin du Communism a la tragedies du Kosovo, Genevem, 2001.
- 21- Samuel P. Huntington," The clash of civilizations and the Remaking of world", Simon and Schuster, Order, New York, 1996.
- 22-Norbeng, Schulz, "logic in architecture", idem, 1979.
- 23- The age khan program for Islamic architecture," architecture of identity ", Cambridge, mail, 1993.